جامعة زيان عاشور بالجلفة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم علوم الإعلام والاتصال

السنة الأولى ماستر إعلام واتصال –تخصص سمعي بصري-

ملخص محاضرات تاريخ الجزائر الثقافي

الموسم الجامعي 2024-2025

السداسي الأول

المحاضرة الثالثة: أبرز معالم الحياة الثقافية في الفترة الوسيطة (بعض الحواضر والمؤسسات العلمية بالمغرب الأوسط، أهم الشخصيات العلمية....)

أولا: بعض الحواضر والمؤسسات العلمية بالمغرب الأوسط:

01-تيهرت:

تأسست مدينة تيهرت على يد عبد الرحمان بن رستم سنة 141هـ وظلت لأزيد من قرن ونصف عاصمة للدولة الرستمية، حيث عرفت خلال هذه الفترة ازدهاراً للحياة الفكرية نظراً للاهتمام الكبير الذي أولاه الرستميون لهذا المجال، بل إن الحكام الرستميين أنفسهم كانوا من العلماء البارزين فقد كان عبد الرحمان بن رستم من كبار علماء الإباضية وأحد الخمسة حملة العلم الذين كلفوا بنشره ببلاد المغرب، وكان ابنه عبد الوهاب يشرف بنفسه على إلقاء الدروس وكان هذا هو حال باقي الأئمة. هذا ولم يكن العلم بتيهرت حكرا على الحكام والأئمة فقط بل كان عامة الناس يطلبونه ويشجعون أبناءهم على تلقيه.

كانت مساجد تيهرت تشتمل على حلق لمختلف العلوم النقلية منها والعقلية، إضافة إلى عقد المناظرات الفكرية بين أصحاب المذاهب المختلفة، كما كانت تزخر بالمكتبات العامرة خاصة منها مكتبة المعصومة التي كانت منبرا علميا مهما، وقد ساهم الرستميون في إثرائها بمختلف المصنفات العلمية، حيث تشير المصادر أنها ضمت أزيد من ثلاثمائة مصنف في مختلف الفنون.

ولعل أبرز عامل ساهم في انتعاش الحياة الثقافية بتيهرت هو تسامح الأمراء الرستميين وفسحهم المجال لأنصار المذاهب المختلفة للدفاع عن مذاهبهم، فكان بتيهرت العلماء السنيون والخارجيون وأيضا المعتزلة، وقد جعل هذا التمازج الفكري مدينة تيهرت آنذاك بمثابة مركز للدراسات الإسلامية.

02- بجاية:

اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري حوالي سنة 457هـ وسميت بالناصريه نسبة له، ولم تكن في البداية سوى ميناء صغير محتشم سكنه الأندلسيون، غير أن اختيارها من قبل الأمير الحمادي الناصر لينقل إليها عاصمة الدولة الحمادية جعلها تتبوء مكانة مهمة بالغرب الإسلامي، إذ قام بتعميرها وتوسيعها واستحدث فيها الكثير من المباني والقصور والمراكز التعليمية.

لقد أبدى الحماديون اهتماما كبيرا بالعلماء والمفكرين، فكانوا يشجعونهم ويؤثرونهم على سائر الطبقات ويجزلون لهم في العطاء ويقدمونهم في الدولة، ما أدى إلى انتشار التعليم بشكل واسع داخل المجتمع وهو ما أكده ياقوت الحموي حين ذكر أنه حتى العوام والعمي في بجاية كانوا يحفظون كتب البخاري والموطأ والتلقين ويشرحونها من ذاكرتهم.

وقد حظيت بجاية بمؤسسات ثقافية عديدة كالمسجد الأعظم الذي استقطب الكثير من الطلبة والعلماء فتخرج منه الكثير وقد تواصلت شهرته إلى غاية الفترة الموحدية والحفصية، ومسجد الريحانة المعروف أيضا بمسجد الإمام المهدي بن تومرت الذي اشتهر بحلقات الدروس التي كانت تقام به.

كذلك عرفت بجاية إنشاء المعاهد العلمية فقد اسس الناصر بن علناس "معهد سيدي التواتي" الذي كان يضم حوالي ثلاثة آلاف طالب وكانت تدرس فيه شتى العلوم النقلية والعقلية. كما عرفت بجاية انتشاراً للزوايا وذلك بالموازاة مع انتشار ظاهرة التصوف، وقد أدت هذه الزوايا دورا تربويا وتعليميا مهما.

03- تلمسان:

تقع تلمسان في الإقليم الغربي من المغرب الأوسط في أرض تحيط بها الجبال، وقد اختارها الزيانيون عاصمة لدولتهم وجعلوها من أهم الحواضر العلمية بالغرب الإسلامي عامة.

وكان السلطان يغمراسن بن زيان أول من شجع الحركة الفكرية بتلمسان، إذ رغب رجال العلم في القدوم إليها وأغدق عليهم بالعطايا والأموال ما شجعهم على التأليف والتدريس.

وقد وصف الرحالة القلصادي الحركة العلمية بتلمسان حينما زارها فقال: " وأدركت فيها كثيرا من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، والى الجد والاجتهاد فيها مرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان".

اشتهرت تلمسان بمدارسها العديدة التي نذكر منها: مدرسة ابنى الامام التي بناها ابو حمو موسى الاول خلال الربع الثانى من القرن الثامن الهجرى وعين للتدريس فيها الاخوين ابنى الامام وهما العالمين ابي زيد عبد الرحمن واخيه ابو موسى عيسى فحملت المدرسة اسميهما.

هذا إلى جانب المدرسة التاشفينية التي بناها السلطان أبو تاشفين الأول الذي أراد أن تكون في مقام أو تضاهي جامع القرويين بفاس والقيروان بتونس، إضافة إلى المدرسة اليعقوبية التي أسسها أبو حمو موسى الثاني تخليدا لذكرى والده

أبي يعقوب يوسف حاكم مدينة الجزائر، كما ساهم أبو الحسن المريني أثناء استيلائه على تلمسان في بناء مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد التي تم انشاؤها سنة 748 هـ ومدرسة اخرى بجانب مسجد وضريح الولي الصالح ابي عبدالله الحلوي سنة 754 هـ.

إضافة إلى هذه المدارس كان للمساجد بتلمسان دور علمي مهم، وقد أولاها الزيانيون اهتماما كبيرا حيث وسعوا الجامع الأعظم بالمدينة حتى صار قبلة للعلماء وطلاب العلم من كل النواحي، إذ كان هذا المسجد بمثابة جامعة على النموذج القديم كجامع الزيتونة بتونس والقرويين بفاس وجامع غرناطة بالأندلس.

كما شيد السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن مسجدا سنة 696هـ حمل اسم العالم أبي الحسن التنسي الذي استقر بتلمسان وذاع صيته بها بفضل دروسه التي كان يلقيها بهذا المسجد، وفي عهد السلطان أبي حمو موسى الأول تم بناء مسجد أولاد الإمام الذي كان ملحقا بالمدرسة سابقة الذكر، إضافة إلى مسجد سيدي لحلوي الذي بناه السلطان المريني أبو عنان فارس سنة 754هـ ومساجد أخرى كان لها الإسهام الكبير في تنشيط الحركة العلمية بحاضرة تلمسان.

كذلك انتشرت بتلمسان في العهد الزياني المكتبات سواء العامة منها أو الخاصة، حيث اهتم سلاطين بني زيان بإنشاء المكتبات كتلك التي أنشأها أبو حمو موسى الثاني سنة 760هـ والتي كانت ملحقة بالجامع الكبير بالمدينة حيث زخرت باحتوائها على نفائس المخطوطات في شتى العلوم، كما أنشأ السلطان أبو زيان محمد بن أبي حمو موسى سنة 796هـ خزانة كتب كانت تقع في القسم الأمامي من الجامع الأعظم وعمرها بمختلف الكتب. يضاف إلى المكتبات العامة ما كانت تملكه الأسر العلمية من مكتبات خاصة كأسرة آل عقبان وآل مرزوق وآل المقري.

ثانيا: بعض الشخصيات العلمية.

01- أحمد بن نصر الداودي:

هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي، المسيلي، الطرابلسي، التلمساني المالكي. من أئمة المالكية ببلاد المغرب. يعود نسبه إلى قبيل الأسد، التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى شمال إفريقيا.

أثنى على الإمام الداودي العديد من العلماء وأصحاب كتب التراجم، خاصة وأنه صاحَب سعة علمه بحسن الخلق والورع والزهد، فقال القاضي عياض أنه "من أئمة المالكية بالمغرب والمتسعين في العلم المجيدين في التأليف". ووصفه محمد بن محمد مخلوف بقوله: "الإمام الفاضل العالم المتفنن الفقيه له حظ من اللسان والحديث والنظر".

خلّف الإمام الداودي تراثا هاما في الفقه والحديث والتفسير وغيرها من العلوم الشرعية، وبالرغم من أن معظمها يعتبر في عداد المفقود إلى حد الآن إلا أن كتب التراجم ونقولات العلماء عنه حفظت لنا عناوين كتبه المفقودة وكثيراً من نصوصها وسنستعرض فيما يلي أهم كتب الإمام الداودي:

أ- النامي في شرح الموطأ :

من أوائل لكتب التي ألفها الإمام الداودي وأملاه في طرابلس الغرب، وقد أشار بعض الباحثين لوجود نسخة مخطوطة من الكتاب في مكتبة القرويين بفاس، غير أن الأستاذ عبد العزيز الصغير دخان ذكر أن النسخة المذكورة لا تعود للإمام الداودي إنما لتلميذه عبد الملك البوني.

ب- النصيحة في شرح صحيح البخاري :

بالرغم من أن هذا الكتاب يعتبر من المصنفات المفقودة، إلا أن اعتماد شراح صحيح البخاري عليه ساهم في حفظ الكثير من نصوصه خاصة كتابي "فتح الباري" لأبي حجر العسقلاني و"عمدة القاري" لبدر الدين العيني.

أما عن منهجه في هذا الكتاب فقد ركز الداودي على ضبط الأسماء المبهمة، وضبط لفظ الأحاديث وبيان تأثير ذلك في معانيه، إضافة إلى الحكم على الحديث، وشرح الغريب منه، وتعديل عناوين التراجم والاعتراض على بعضها وإنكارها.

ج- كتاب الأموال:

هو كتاب يتناول مواضيع مختلفة متعلقة بالاقتصاد الإسلامي وقد حققه الأستاذ رضا محمد سالم شحادة وطُبع عدة طبعات.

د- كتاب الأسئلة والأجوبة في الفقه:

ذكر الأستاذ فؤاد سزكين وجود مخطوطة هذا الكتاب بجامعة الزيتونة بتونس تحت رقم 10486، وأنه يقع في 121 ورقة.

هـ- الإيضاح في الرد على البكرية:

ذكره القاضي عياض بعنوان "الإيضاح في الرد على الفكرية"، وذكره ابن فرحون بعنوان "الإيضاح في الرد على القدرية"، وهو كتاب يرد فيه الداودي على الطائفة البكرية بزعامة أبو القاسم عبد الرحمان البكري الذي ادعى رؤية الله في اليقظة.

و- تفسير القرآن الكريم:

وهو كتاب مفقود، ذكره عبد الرحمان الثعالبي ونقل عنه في كتابه "الجواهر الحسان في تفسير القرآن."

ز-كتاب الواعي في الفقه:

وهو من الكتب المفقودة.

ح- كتاب البيان:

وهو مفقود أيضا.

ط-كتاب الأصول:

مفقود.

02- المقري:

ينتسب المقري قرية "مقرة" وهي إحدى قرى الزاب، يرجح أن تاريخ مولده كان في حدود سنة 710هـ/ 1310م، وقد تتلمذ على يد ثلة من علماء تلمسان حيث عكف في بداية تحصيله على مدارسة القرآن وحفظ الروايات السبع، ثم تعلم قواعد اللغة العربية فدرس كتاب التسهيل، ثم العلوم الدينية من فقه وأصول، ثم استزاد من باقي العلوم النقلية والعقلية، كما قام برحلة إلى مختلف الحواضر الإسلامية قصد لقاء المشايخ والاستزادة منهم.

بعد عودته من رحلة الحج سنة 730هـ/ 1329م اشتغل بالتدريس بمدينة تلمسان، ثم انتقل إلى فاس فدّرس بالمدرسة المتوكلية وكان من ألمع من اشتهر بها، وفي سنة 756هـ/ 1355م انتصب للتدريس بجامع غرناطة وألقى دروسا بمدرستها الشهيرة الناصرية وكان الوزير لسان الدين بن الخطيب من أبرز من درسوا عنده.

وقد كانت للمقري مؤلفات عديدة في الفقه والتصوف وغيرهما نذكر منها:

أ- كتاب القواعد: يشتمل على 1200 قاعدة فقهية.

ب- كتاب عمل طب لمن حب: كتاب موجه للمبتدئين متنوع المواضيع في الأصول والفقه.

ج- كتاب الحقائق والرقائق: وهو كتاب في التصوف.

د- كتاب نظم الآلي في سلوك الأمالي: ترجم فيه المقري لشيوخه ودوّن فيه رحلته.